واعظ الليمان

قصة بقلم محمود السعدني

كانت الشمس تلهب رمال الصحراء العريضة المحيطة بالليمان . ولم يكن هناك شجرة واحدة على بعد عدة أميال من مكان السجن.. ولا ثمة طيور شاردة في الجو ولا بئر ماء .. ولا اثر اطلاقاً للحياة - .. لم يكن هناك سوى عدة قبور مهجورة نبشتها الكلاب والذئاب وصقور الجو الجائعة. وكان الطريق من المدينة الى السجن طويلاً مرهقاً والعربة الوحيدة التي صادفها واعظ السجن لنقله الى هناك عربة نقل تستعمل في نقل اللحوم مرة كل أسبوع الى هؤلاء الذين لفظتهم الحياة بعيداً عنها .

كان الواعظ بديناً قصير القامة أحمر الوجه يبدو للوهلة الاولى كأنه من عمد الريف الاثرياء وكان حديث التخرج . وكانت وظيفته واعظ السجن.. هي أول عمل يقوم به في الحياة .

جلس الواعظ بجوار السائق يفكر فيما عساه يقوله في صباح الغد للمذنبين من نزلاء الليمان . وتذكر وهو جالس بجوار السائق والعربة تهزه هزاً عنيفاً كل خطب الوعظ التي حفظها عن ظهر قلب ، خطبة رمضان المعظم وفيها الحث على الصوم ومغالبة النفس ، وخطبة الحج وفيها المناسك جميعاً ، وخطبة رجب وفيها النهي عن زيارة المقابر و.. و..

وابتسم الواعظ في سرور لانه لم يزل يحفظ هذا كله . وفي جعبته عدد لا بأس به من الآيات والاحاديث، واستقر في مقعده مطمئناً الى النجاح الذي سيصادفه غداً عندما يقف أمام حشد المذنبين ليعظهم ويرشدهم الى العمل الطيب الذي يرفعه الله الى سماواته ، ودس يده في جيبه واخرج منديله الكبير وجفف به عرقه الذي يسيل من فوق جبهته فيملأ عينيه حتى تعذرت الرؤية عليه وكان الارهاق الشديد قد نال منه خلال الرحلة فأغمض عينيه وراح في نوم عميق .

وعندما استيقظ في صباح اليوم التالي كانت الشمس قد توسطت الافق، وحجارة السجن الصماء تكاد تنصهر من شدة الحرارة، وكان قد قضى ليلته غارقاً في نوم عميق أنساه طول الرحلة ووعورة الطريق . وعندما فرغ من صلاته جلس يتناول إفطاره وكان شهياً لذيذاً بكميات ضخمة ، ودهش لوجود مثل هذه الاصناف اللذيذة والكميات الكبيرة داخل الليمان .. لا بد أنهم سعداء ، هؤلاء النزلاء، وهو نفسه عندما كان خارج هذه الجدران في عالم الحرية - ايام ان كان طالباً بالازهر - لم يكن يستطيع الحصول على هذه الكميات ولا هذه الاصناف.

لم يفكر طويلا في هذا الامر الذي بدا غريباً في نظره ، وراح أثناء تناوله الطعام يفكر في الخطبة التي أعدها والتي يرجو من أعماقه أن تحوز رضى مأمور الليمان . وتجشأ الشيخ عبد الحميد (هذا اسمه) وهو يخطو أمام الحارس في طريقه الى مكتب المأمور .. ليتعرف اليه، اذ لم تكن أمامه الفرصة ليقوم بهذا العمل في مساء الامس عندما هبط السجن في عربة اللحوم .

وكان غريباً أيضاً هذا الذي صادفه في شخص المأمور، فقد كان رجلاً بديناً تدل ملامحه الغليظة على الطيبة والهدوء، وكان فوق هذا وذاك مطلعاً على كتب النحو والبلاغة وآراء الشراح القدامى والمحدثين.

وبعد أن انتهى الحديث بينهما حول الفقه والدين، اتخذ المأمور سمة الحاكم وقال مخاطباً الواعظ بعد أن اصلح رباط عنقه :« اننا هنا اسرة واحدة ، وانا طيب جداً ما دام النظام هنا على أكمل وجه، والرجل الذي يعمل داخل السجن هو في الحقيقة مسجون بملابس عادية ، وستحب مهنتك جداً ما دمت مخلصاً لها مقبلاً عليها ، وارى من واجبي ان اخبرك ان زميلك الذي حلت انت مكانه ظل معنا هنا لمدة طويلة كان فيها مثالاً للكفاءة ، والاخلاص ، ولكنه فجأة نسي أصول مهنته فأخذ يتدخل فيما لا يعنيه ، وأصبح هو سبباً في تمرد المذنبين على الاوامر . فقد كان يتدخل دائماً حتى في طريقة معاملة السجانين للمسجونين ، ولكنه نال جزاءه ونقل من هنا الى جهة نائية . فأنا لا أحب شيئاً قدرحي للنظام واضحي في سبيل تدعيمه بأقرب المقربين الي.»

تصبب العرق على وجه الشيخ عبد الحميد وهو يستمع الى قصة الواعظ الذي سبقه ، ، وجف حلقه تماماً عندما أنهى المأمور قصته بخبر نقله واستعاذ برب العباد ومن شر الشيطان الرجيم ودعا الله سراً أن يوفقه في عمله، وأن يعمل آمناً مستقراً ويجمع قدراً من المال ليشتري به قطعة أرض على (حرف الترعة) كما فعل الشيخ رشيد والشيخ سليمان من ابناء قريته وزملاء الدراسة .. وعندما انتهت المقابلة خرج الشيخ عبد الحميد من مكتب المأمور وهو يتمتم باسم الله، والحارس يخطو امامه في الردهة الضيقة الطويلة ليقوده الى الفناء الواسع حيث ينتظره المذنبون منذ ساعة ليستمعوا الى موعظته . وعندما اطل على الفناء كان الحر لا يزال شديداً ورأى اكثر من الف مسجون يجلسون القرفصاء على الرمال في مواجهة منصة صنعت خصيصاً لتقي الواعظ حرارة الصيف في تلك المنطقة الجافة الحارقة . وحول الجالسين اصطفت فرقة من الجند المسلحين وقد صوبوا أسلحتهم الى القطيع البائس ، وكان اللغط يدور شديداً بين الجالسين ، وكأنهم في معركة كلامية حادة . ولكنها سرعان ما هدأت تماماً عندما اقترب الواعظ من الجمع المحتشد وتركزت كل النظرات عليه..وحتى نظرات الحراس . واحس الشيخ عبد الحميد بأهميته البالغة ربما للمرة الاولى ، فتحمس واصلح من وضع العمامة وثبت بصره في الارض وهو يصعد السلالم الخشبية المؤدية الى المنصة ، والقى نظرة شاملة على كل من حوله ، ثم رفع صوته بالتحية وبدأ يلقي موعظته في صوت رطيب ونبرات حلوة ، ولكن هبت الاصوات من جانب المستمعين .

- هس يا جدع انت وهوه .
- اللي يحب النبي يسكت .
- خلونا نسمع الكلام المفيد .

ويبدو ان احداً منهم لم يكن يحب الاستماع الى الكلام المفيد . فقد ظلت الضوضاء تتصاعد من حوله وكأنه يعظ في سوق . ولم يثنه هذا عن الاستمرار فقد كان الموقف يحتاج الى شجاعة ... وهو شجاع فواصل حديثه اليهم .

-«ايها الناس ... امرنا الله باتباع طريق الخير... والبعد عن طريق المعصية ، ومن يعمل منكم مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل منكم مثقال ذرة شراً يره ، نهانا الله عن الخمر فلا نقربها ... وعن الميسر فلا نمارسه ، حكمة سماوية ... والبعد عن الخطيئة التي يزينها الشيطان، انما الخمر والميسر والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . فالخمر تهدم الصحة وتمحو الشخصية ، والميسر يهدم بيوتكم الآمنة ويجركم الى الدين والخراب، فاتقوا الله يا معشر المسلمين تنالوا رضاه . »

وتوقف الشيخ عبد الحميد عن مواصلة حديثه ريثما يجفف عرقه الذي سال من جبينه على عينيه واحس ارهاقاً شديداً ، وصعوبة في التنفس ... لا بد انه اجاد واحسن والا .. فلماذا كل هذا الاستغراق حتى لقد نسي نفسه؟. والقى الشيخ عبد الحميد نظرة من حوله ليرى وقع حديثه في نفوس السامعين لم يكن هناك من ينظر اليه . المذنبون يتجادلون في ضجة ...

وزبا من اجل عملية بيع وشراء ولفائف تبغ كثيرة تنتقل من يد الى يد ، واوراق لامعة شفافة تتناولها الايدي لتسلمهـــا الى اخرى . والحراس مستندون الى فوهات بنادقهم ، وعيونهم مغلقة في اغفاءة لذيذة . وارتبك الشيخ عبد الحميد ولم يدر ماذا يفعل ، انه واثق تماماً من انه اجاد اختيار موضوع العظة وصوته جميل حسن ، فلماذا اذن لايستمع اليه هؤلاء الجهلاء ...؟

وعاد الشيخ عبد الحميد مواصلاً حديثه وفي هذه المرة بصوت اشد :

– « ايها الناس ان الله يأمركم بالزكاة ففي اموالكم حق للسائل والمحروم ، لا تكنزوا ثرواتكم ، فتجنوا حسرة الدنيا وعذاب الاخرة ولا تبذروا في اموالكم فقد نهى الله عن التبذير ... ان المبـــذرين اخوان الشيطان فعلى كل منكم ان يطهر ماله بالزكاة . »

وتوقف الشيخ عبد الحميد قليلا ريثما يلتقط انفاسه وعاد من جديد ينظر الى الجمع المحتشد امامه ، كان الجميع مشغولين عنه وعن حديثه بما يبدو انه اهم من ذلك . عمليات بيع وشراء على الطريقة التي كانت سائدة يومـــاً قبل ان تخترع النقود .. والحراس في نفس الاغفاءة اللذيذة. واستبدت الدهشة بالشيخ عبد الحميد كيف لم يستطع التأثير على هؤلاء الناس ، وقد نجح من قبل في السيطرة على اهل قريته عندمـــا كان يخطب فيهم الجمعة خلال زياراته المتعددة لهم في فصل الصيف ؟ كان يومئذ طالباً ، والان وهو يعمل كواعظ رسمي ، لا يستطيع ان يلفت اليه نظر هؤلاء المذنبين ... واشتد ارتباك الشيخ عبد الحميد ، وهو لا يدري تماماً ماذا يجب عليه ان يفعل : هل ينسحب ويمشي ولكن هذه قد تحسب عليه .. اذاً هل يصرخ فيهم انتبهوا ايها الكافرون ؟ ... ام ... وقبل ان يمضي في تفكيره للعثور على حل لهذه المشكلة انتبه الى صوت اجش يرتفع صائحاً :

– انتباه

وعلى الأثر ظهر المأمور وبجانبه كبار الضباط وعدد كبير من الحراس مقبلين جميعاً في موكب مهيب نحو منصة الشيخ ، وانتفض الحراس في وقت واحد وقد طار النوم من عيونهم وصمت المذنبون وكأنهم جثث في مقبرة وانتفض الشيخ عبد الحميد هو الآخر ، فقد اخذته روعة الموكب المهيب واختلطت في ذهنه جميع المواعظ التي حفظها عن ظهر قلب طول حيـــاته الماضية ، وارتفع صوته من جديد . وكان المأمور قد اتخذ له مكاناً على مقربة من الحشد الكبير :

– «ايها الناس كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم (وكل عمل ابن ادم لنفسه الا الصيام فهو لي وانا اجزي به) . والصيام دواء لمرض النخمة ولاشعاركم بما يلقاه اخوانكم المحرومون فتعطفوا عليهـــم وتحسنوا اليهم وترزقوهم مما رزقكم الله .»

وتوقف الشيخ عبد الحميد قليلاً ، كان الصمت لا يزال مخيماً على الجميع . وهم ينصتون في هدوء ويمصمصون شفاههم في طرقعات مسموعـــة ، وعيونهم تختلس النظرات الى الناحية التي يقف فيها المأمور . وكان يبدو عليهم التأثر الشديد لما يقوله الشيخ وكأن افئدتهم قد تفتحت للتوجيه الصائب والمواعظ الحسنة . ورضي الشيخ عبد الحميد عن نفسه كثيراً وراح يربت بيده على صدره العريض . لقد آمن افراد هذا القطيع اخـــيراً ، آمنوا بالصلاة والصيام والزكاة والحج الى بيت الله لمن استطاع اليه سبيلا . وغشيت عينيه سحابة من اثر الرضا ، وعاد الى حديثه يلقيه في عزم وقوة . وعيناه لا تريان شيئاً امامه سوى الاستقرار الذي سيلقاه في عمله ، وقطعة الارض التي سيشتريها بجوار الترعة . ولِمَ لا ؟ وقد ران الصمت عليهم واستطاع ان يغزو قلوبهم بالايمان ؟

القاهرة

محمود السعدني

يطلب من

دار المعجم العربي

بيروت

ص. ب ٣٣٦٩ تلفون ٢٣٠٢٤

شارع بشاره الخوري – بناية وقف بزمار

السعر

٢٥٠ القسم **المعجم** (القسم الاول، القسم الثاني، القسم الثالث، القسم الرابع) **العلامة عبدالله العلايلي**

١٥٠ جمال الدين الافغاني	ثابت المدلجي
١٧٥ لوركا – عرس الدم	الدكتور علي سعد
٢٠٠ في علم الجمال	محمد عيتاني
٢٠٠ بابلو نيرودا	احمد سويد المحامي
١٥٠ ارضهم .. كسبوها	ميشال سليمان
٢٠٠ نحن.. في دروب الشمس	تشاكوفسكي
٢٠٠ دروب الجوع	جورج امادو
٥٠ في النشاط العملي	ماوتسي تونغ
١٥٠ من شعر ناظم حكمت	الدكتور علي سعد

قيد الطبع

النظريات المادية في المعرفة	روجيه جارودي
المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي	كدروف